القواعد الشرعية في إدارة الصراع الحضاري

كتب د. سامي الدلال مؤلفًا يعالج صراع الحضارات، وهو الأخطر حين تحتك أكثر من حضارة، ويتجاوز الاحتكاك السقف، تندلع المعارك ويشتد الصراع، ويبلغ التوتر مداه.

د. الدلال يحاول (بسط الموضوع)[1] فيتحدث عن وجود أكثر من حضارة، كل واحدة تسعى جاهدة (لحفظ هويتها وخصوصيتها)، ومن ذلك الحضارة الإسلامية والغربية والصينية والهندية واليابانية.

وكان من ثمار استغلال (الفائض الحضاري) لدى بعضها أن عمدت للنيل من الحضارات الأخرى، لكن النتيجة الأشد خطورة كانت في (هزيمة الرمز الحضاري الإسلامي)، الذي كانت (العثمانية) تمثله، فبعد المشاركة في الحرب العالمية الأولى وخسارتها جرى تفكيكها، وإلغاء نظام الخلافة في ١٩٢٤/٣/٣م، وما تبع ذلك من حرب على الثقافة الإسلامية والخط العربي، وعزل تركيا النهائي عن محيطها، ثم ما حصل من الغرب لاستعمار البلاد العربية والإسلامية، وإقامة كيانات هزيلة، ثم جاءت الكارثة الكبرى بإقامة إسرائيل وتسليطها على دول المنطقة في ١٩٤٨/٥/١٥م.

---

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري بين الأمم الإسلامية وسواها من الأمم، د. سامي محمد صالح الدلال ص (١٧) طبعة أولى ٢٠٠٨م.

وقد اندفع الغرب بأقصى طاقته لقيام إسرائيل والتمكين لها، بحيث صارت (كلب حراسة) كما يقول العرب، أو (عاهرة موانى) كما يقول أحد الإسرائيليين.

والذي يهم بالدرجة الأولى الصراع الشديد بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وثمرة هذا الصراع، ومعالم الحضارة الإسلامية.

معالم الحضارة الإسلامية

خصص الكاتب أكثر من (١٦) صفحة لبيان معالم حضارتنا، قد تشاركها بعض الحضارات فيها وقد تنفرد، وألخصها فيما يلي[١]:

١- حضارة تعتمد الوحي السماوي ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨).

٢- منبثقة عن عقيدة توحيدية توجه مساراتها وتضبط وسائلها ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

٣- شاملة لمتطلبات الحياة بفروعها العقلية والفكرية والثقافية والبدنية والنفسية والاجتماعية.

---

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري بين الأمم الإسلامية، المرجع السابق ص ١٩-٣٤.

٤- حضارة تسودها حرية منضبطة بالكتاب والسنة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

٥- حضارة تهتم في الدنيا والآخرة معًا، وتجعل الدنيا مزرعة للآخرة ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩).

٦- حضارة نقية اللغة ثرية المعاني وافرة المباني ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

٧- حضارة إنسانية تؤمن بكرامة الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

٨- حضارة تؤمن بالعدل وترفض الظلم والقمع وتحارب البغي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

٩- حضارة تقوم على قواعد الأخلاق والقيم الرفيعة ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

١٠- حضارة تؤمن بالعلم وترفع قدر أهله ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

١١- حضـارة تعمل للتكافل وتوطيـد الإخاء والتراحم، قال ﷺ:
«الخلق عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله».

١٢- حضـارة تدعـو للسلم وتحـترم القـوة العادلة ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

١٣- حضارة تؤمن بجلب المصالح وإقرارها ودفع المفاسد وإبعادها.

١٤- حضـارة عرفت التـدرج، وقامت باحـترام قناعات الناس والعمـل على تغيير السيئ منها بالتدريـج والإقناع والجدال بالتي هي أحسن.

١٥- حضـارة تؤمـن بالتيسـير ودفـع الحرج وبـث الأمل ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٨٧).

١٦- حضـارة تؤمـن بوحـدة الصـف ودفـع الاختـلاف والتشتت ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

١٧- حضـارة نضال حربي وسلمي، فكـري وثقافي، فحين قامت في شبابهـا دخلت في صراع مـع أقدم حضارتـين الفارسية الساسانيـة والبيزنطيـة الرومانية، فأنهـت الأولى وأبعدت الثانيـة، وقادت العالم مدة جـاوزت ألف عام، وكان أتباعها يشكلـون أفضـل مواطنين في دولة وحضـارة، وعلمت العالم الشيء الكثير.

سنة التداول

من سنن الله الكونية (التداول) يقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

فكل شعب وكل أمة يأخذ بموجبات التقدم يتقدم، وعلى العكس فكل من جمد وتشنج وأخذ بأسباب التخلف فإنه يتخلف، يستوي في ذلك (مؤمن وكافر)؛ لذا نرى تاريخ العالم يسجل مثلاً: من اكتسب القوة فلن يحتفظ بها أبدًا، ومن جمع الثروة والمال والقيادة والريادة، فهو يعجز عن الاحتفاظ بها أبدًا، ومن عاش ضعيفًا متخلفًا ثم أخذ بأسباب التقدم فإنه يتقدم[1].

ومن الوهم الكاذب أن يعتقد أحد أن التقدم من نصيب أمم بعينها مهما فعلوا، فالتقدم (قدر) والتخلف كذلك، والله تعالى العادل لا يحابي أحدًا، وليس لديه شعب اختاره من بين شعوب الأرض، فكل البشر عبيده، والأفضلية عنده (للتقوى).

أما من اختاره يومًا فلصفات حازها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ فهذه الصفات هي مبرر (الأفضلية)، فمتى فقدت وحل مكانها صفات سيئة فلا أفضلية ولا يحزنون... ا.هـ.

لقد ضربتنا (سنة التداول) كما ضربت وتضرب غيرنا من البشر.

---

(١) تفسير التاريخ، نعمان السامرائي ص (١٦٥) طبعة ١٤٢٧هـ.

سنة التغيير

من السنن الكونية الكبرى (سنة التغيير) من الأسوأ للأحسن، وبالعكس، ولا حصانة لأحد، ولا استثناء لأمة.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١). يبتدئ (التغيير) من الفرد لينتهي بالأمة، يستوي في ذلك الصعود نحو الأفضل، والهبوط نحو الأسوأ.

ويوضح الله تعالى هذه السنة، فيقول: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٥٣).

ويؤكد هذه الحقيقة بقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف: ٥). فالتغيير العميق يبدأ من نفس الفرد لينتهي بالأمة، أما (الطلاء) من الخارج وذلك بالتظاهر الكاذب، وادعاء الاستقامة فكل هذا ليس من التغيير؛ لكنه تظاهر وتلاعب لا وزن له ولا قيمة.

بعض الناس يعمد لشراء بيت أو عقار قديم، ثم يقوم بطلاء الجدران ودهن الأبواب والشبابيك، فيعرضه للبيع على أنه جديد.

بعض الحكام الفاسدين والحكومات الفاشلة تفعل ذات الشيء؛ لتوهم الناس أنها أصلحت وغيرت وبدلت.

بالمثل تتوالى الهزائم على الأمة، والحاكم الفاسد يصرخ ليل نهار (انتصرنا انتصرنا وكان سلاحنا كفاحًا)، وكما قالت امرأة يومًا: نحن نتلاعب بالحروب ونتحارب بالملاعب.

عندما بدأنا العد التنازلي

تقدم الأمة وتحضرها لا يتم بقرار سياسي من أعلى، كذلك التأخر والتخلف، ولا يحصل هذا ولا ذاك بيوم وليلة.

لقد تقدمنا بسرعة، ودخلنا التاريخ نحمل عقيدة سهلة واضحة، وثقافة تستند إلى آخر كتاب سماوي، وتقود الركب نبوة لها عصمة وتسديد من الخالق، ورجال تخرجوا في مدرسة النبوة، لكن أدركنا ما أدرك غيرنا من الأمم؛ لذا طرح البعض فكرة موجزة فقال: لننظر كيف كنا قبل الإسلام، وكيف صرنا عندما اعتنقنا الإسلام، وإلى ماذا صرنا عندما رحنا (نتهاون) في تطبيق الإسلام؟

د. سامي الدلال يرصد أسباب الانحسار فيعد منها[1]:

(١) القواعد الشرعية ص (٣٤).

١- الحروب الصليبية الطاحنة، واجتياح الحواضر الإسلامية مثل بغداد ودمشق وحلب وجل المدن التي اجتاحها الإعصار التتري والمغولي.

٢- دخول العالم الإسلامي في حروب ومعارك طاحنة مع الغرب أوصلها بعض الغربيين إلى (٣٧٠٠) معركة كبيرة.

٣- سقوط العالم الإسلامي بأيدي المستعمرين الغربيين.

٤- انتشار التصوف والحركات الباطنية.

٥- ظهور تيارات حزبية تعادي الإسلام وحضارته وتاريخه.

٦- انصراف وابتعاد المسلمين عن الإبداع والابتكار.

٧- التخلف الفكري والثقافي والعلمي والتنموي.

٨- هيمنة أنظمة غير إسلامية خصوصًا بعد سقوط الدولة العثمانية.

٩- الزهد بالإسلام - خصوصًا كتشريع - والابتعاد عن الكتاب والسنة.

١٠- نهب المستعمرين لخيراتنا والتحكم بأهمها كالنفط.

١١- الإعجاب بالغرب فكرًا وسلوكًا وحضارةً.

عوامل داخلية وأخرى خارجية تكاتفت لتدفع بنا نحو (ذيل القافلة).

ما قدمه الإسلام

وجدت د. محمد شابرا يدرس قضيتين، الأولى: ما الذي قدمه الإسلام لأمته والعالم؟ والثانية: لماذا تدهور المجتمع الإسلامي بعد أن كان في المقدمة؟ والدراستان جاءتا. ود. شابرا يدرس فكر (ابن خلدون) [1]..

يقول د. شابرا - الهندي الأصل والعضو في مؤسسة النقد السعودية -: يذهب عدد من العلماء الغربيين إلى أن الإسلام لعب دورًا (إيجابيًّا) في تنمية المجتمعات الإسلامية في الماضي... والإسلام هو العامل الوحيد (المفسر) لمجتمع بدوي، اتسم بعداوات ضارية، مع ندرة في الموارد، مع طقس صحراوي قاس، يفتقد لمتطلبات (النمو) وقد استطاع - مع كل ذلك - أن يتطور بهذه السرعة، برغم الظروف، وأن يقف بحزم ضد الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وهما الأعلى فكريًّا وماديًّا.

ووفقًا (لنورث وتوماس) فقد بدأ هذا المجتمع في الازدهار في القرن (السابع) حينما كانت أوروبا عبارة عن مجتمع (بربري كبير)، واستمر حتى القرن العاشر.

ويرى المؤرخ البريطاني توينبي: أنه لولا الإسلام لم يكن ليوجد (ذلك الانتشار) غير العادي للقوى الروحية (الكامنة)

(١) الأمة وأزمة الثقافة ١/٤٠٦ دار السلام عام ١٤٢٨هـ.

والتـي بها حقـق الإسلام نفسـه، ومن ثم غير مهمتـه عبر ستة قرون... قام الإسلام (بتفعيل) كافة العوامل (التنموية) تفعيلًا جيـدًا، فساهـم في ارتقـاء الأفراد معنويًـا وأدبيًـا، وهما القوة الكامنة وراء صعـود أو سقوط أي مجتمع، كما غير الإسلام من نظـرة أتباعه للحياة، وذلـك بإعطائها (معنى وغاية)، كما وفر مؤسسـات وقيمًا معنوية ميسرة (للتنمية)، وصنع مناخًا ملائمًا للرقابة ساعد على نمو وتغيير خصائص هذا المجتمع.

وقـد أقام الإسـلام نظامًا (سياسيًـا) ذا توجه (خلقي)، ينتخـب فيـه النـاس (الخليفة) الـذي يحكم وفـق (الشورى)، ويكون مسئولًا أمام الناس، ومن ثم قدم الإسلام إطارًا لما يسمى الآن (بالحكـم الرشيـد) لضمان العدالـة والكرامـة والمساواة واحـترام النفس، فاستفـاد الجميـع مـن (التنميـة) وخاصة الفقراء والمضطهدون.

لقـد أقـام الإسلام (حكـم القانون)، وكفـل حرمة الحياة والملكيـة وكرامـة الفـرد، وأعطـى مكانـة أعلـى واحترامًا أكبر للمـزارع والحـر في والتاجر، مقارنة بما كان لهـم في (المسيحية والمازديـة) فتراكـم رأس المـال والعمالة، وبمعـدلات (جمركية واطية) في منطقة أفسدتها العداوات القبلية والحروب المستمرة بين الإمبراطوريات، مع قطـع الطريق على القوافل، والضرائب الباهظة.

لقد كان هذا العصر (الكلاسيكي) للإسلام الذي نضجت فيه هذه (الحضارة الجديدة)، والتربة الأصلية التي ولدت من خلال احتشاد العديد من الأجناس والتقاليد فيه.

كما تم استيفاء المطالب للتنمية التي أكد عليها (نورث وتوماس)، واعترفت (شاتز ميلر) بذلك إذ تقول: جميع العوامل التي مكنت أوروبا من النجاح، كانت (متاحة للإسلام) قبل ذلك الحين بوقت بعيد.. ونتيجة لذلك حدثت دورة تنموية اقتصادية كاملة شملت الزراعة والتجارة والحرف، وأدت إلى ارتفاع جوهري في (الدخل) لكل من الأفراد والدولة معًا.

وقد حظي التعليم والبحث بدعم عام كبير، فأدى إلى التحسن في المهارات، وإلى تنمية علمية وفكرية، حتى توافر مناخ لما أطلق عليه المؤرخ (حِتي): صحوة فكرية خطيرة شارك فيها العلماء في كافة المجالات، ومن كل المعتقدات ودون تمييز، وقد أمكن المحافظة على هذا (التفوق) ما يقارب من (أربعة قرون) - من منتصف القرن (٨-٥, ١٢)، وبعد ذلك حصل تراجع عن (القمة) ومع ذلك استمر الإسلام في تقديم إسهامات (جوهرية) لما يقرب من قرنين آخرين على الأقل... ا.هـ.

استعراض جاد وجيد ودقيق لما قدمه الإسلام، يعلمه من يعلمه، ويجهله من أبنائنا من يجهله، ومن جهل شيئًا عاداه،

بعض أبنائنا اليوم يعيشون معنا، لكن قلوبهم تطوف حول أصنام في واشنطن ولندن وباريس وموسكو، والشكوى لله، فإذا حدثته عن الإسلام أو حضارة الإسلام أشاح بوجهه وحاول تغيير الحديث ولو حول (شرب الكولا) الذي تصنعه الهند وتبيعه، معطرًا (ببول البقر).

أسباب تدهور المجتمع المسلم

بعد الحديث العلمي العميق لما قدمه الإسلام، يعقب د. محمد شابرا بعده على ذكر الأسباب التي أدت إلى تدهور المجتمع الإسلامي، ويذكر هنا أسماء عدد من الباحثين من مسلمين وغيرهم، يذكرون عوامل داخلية وخارجية كانت وراء هذا التدهور من بينها[1]:

١- الانحلال الأخلاقي، وقد أجاد (مالك بن نبي) طرح الفكرة إذ يقول: تبدأ الحضارة روحية، يعقبها مدة عقلية تفلسف الأولى، ثم تهيج الغرائز فتسقط الحضارة..

٢- فقدان الإسلام لديناميته، وذلك بشيوع التشدد والصرامة.

٣- تدهور النشاط الفكري والعلمي.

٤- توالي الثورات والانشقاقات الداخلية.

٥- التعرض للغزو الخارجي ووفرة الحروب.

(١) الأمة وأزمة الثقافة ١/٤١١.

٦- العوامل السابقة دفعت لإحداث خلل مالي وفقدان الأمن، مع تناقص معدل النمو والاستثمار.

٧- حدوث تدهور في الزراعة والتجارة والحرف مع ضياع المناجم والمعادن.

٨- توالي الكوارث كالمجاعة والأمراض الفتاكة كالطاعون، فتناقص عدد السكان.

هذه العوارض لا يجادل أحد في وقوعها لكن السؤال: ألا يمكن أن تحدث ثم تعالج، خصوصًا وهذه العوامل - على قوتها لم تقع دفعة واحدة، فلماذا يعجز المجتمع عن علاجها؟

لماذا عجز المجتمع عن العلاج؟

لو وجه السؤال للمؤرخ ابن خلدون لأجاب - كما يرى د. شابرا -: إن سبب الخراب يعود للنظام السياسي، فقد تحول من خلافة (راشدة) إلى (ملك عضوض) عندها تراجعت الكثير من (القيم) وحصل خرق للنظم، كما أسيء استخدام موارد الدولة فازدادت الضرائب، وعندها (وقعت العدالة والتنمية) ضحية لذلك، وتراجع تضامن الناس، وتأثر الحافز للعمل والإنتاج، وكثرت النزاعات وتعددت، فانقسم المجتمع إلى فئات (متناحرة)، أفضى إلى حالة من الركود، بحيث فقد الإسلام (حيويته) مدة قرون... ا.هـ.

ويمكن القول: إن التركيز هنا جرى على العاملين السياسي والاقتصادي، والارتباط بينهما لا يجادل فيه أحد.

ولابد من دراسة حياة ابن خلدون فهو المثقف الأندلسي الذي رأى كيف تنهار الحضارة وتسقط بعد قرون من العمران، ثم يغادر الأندلس إلى شمال أفريقيا ليصبح (حاجبًا) ويغطس في السياسة إلى الأذقان، ويدخل في مفاوضات لا نهاية لها مع (البدو) الذين قدموا من صعيد مصر إلى (الجزائر وتونس حاليًا) وليسقطوا بعض الحكومات، ويوشك ابن خلدون أن يدفع حياته ثمنًا لذلك، فيعتزل الحياة السياسية، ويجلس في قلعة سلامه ليكتب عن تاريخ المنطقة، جامعًا بين خبراته الثقافية وممارساته السياسية، لقد كتب تاريخًا ليس فيه جديد، لكنه كتب مقدمة جعلها في (علم العمران) وهنا كان إبداعه وعبقريته، لكنه جاء في زمن كانت الحضارة الإسلامية تدب نحو (الركود) فلم ينتفع أحد بعلمه أو يلتفت إلى ما كتب، ولأنه اصطدم أكبر اصطدام مع البدو، لذا كان موقفه حادًا جدًا ضدهم، حتى اتهمه البعض بأنه ضد العرب - وهو العربي الأصيل - لكنها معاناة كبرى عاشها وكاد يقتل بسببها، فابن خلدون - المثقف الإسلامي - لن يكون (شعوبيًا) لكنه لن يهمل تجربة عاشها، فأدمت قلبه وهو الهارب من محنة الأندلس ليقع في محنة جديدة، محنة أن تتسلط قبائل بدوية لكثرة العدد

قويـة: فتهـدم دولة (بجايـة)، وتهـدد دولًا مجـاورة، من يعش تجربة عميقة لن يستطيع أن يفلت منها أو يتجاهلها.

ابن خلدون والقوانين الكبرى

إن مثقفًـا درس في الأندلس وتتلمذ على عـالم مثل (ابن رشـد) ومارس التعليـم والخطابـة وتحـول للشمـال الأفريقي ليمارس السياسـة فيفجع بقـدوم بـدو أشداء يهـددون الدول ويسقطـون بعض حكوماتهـا، مثل هـذا الحدث لـن يتركه ابن خلدون يمر مرورًا عابرًا دون دراسة ودون أخذ العبرة.

وقـد حـاول د. محمـد شابـرا استنبـاط قوانـين للنهوض والتقدم خلال دراسته لابن خلدون وما طرحه مما أسماه (علم العمـران)، فجاءت الدراسة من عـالم في الاقتصاد، وعامل في مؤسسة النقد السعودي على الوجه الآتي[1]:

١- قوة الملك لن تتحقق إلا بتطبيق الشريعة.

٢- لا يمكن تطبيق الشريعة إلا من قبل حاكم (ملك).

٣- الملك لن ينال القوة إلا من خلال الشعب.

٤- الثروة (المال) ضرورية لمساندة الشعب.

٥- الثروة لن تكتسب إلا من خلال التنمية (العمارة).

---

(١) الأمة وأزمة الثقافة ١/٣٩٥.

٦- لن يتحقق العمران إلا من خلال العدل.

٧- العدل هو الميزان الذي يقيّم به الله عباده.

٨- تقع مسئولية تحقيق العدل على عاتق الحاكم.

هـذه الأفكار لابن خلدون لكن تنظيمها وحسن ترتيبها جاء مـن قبل د. شابرا، مع الأمانـة العلمية وعدم تحميل الكلام فوق ما يريده ويعتقده ابن خلدون.

موشح في صناعة الفشل

ما دمنا قـد غطسنا في الفشل وأسبابـه والتدهور وتبعاته، فقد وجدت الكاتب المصري (خليل العناني) يكتب (موشحًا) في صناعـة الفشل، الذي شمل الكل وأغرق الكل لدرجة صار (الكل في الهوى سوا).

العناني يكتب حول (الإسلاميون والسلطة) ويبدو أنه سمع الكثـير عن فشـل الإسلاميـين - دون سواهم - لـذا فهو يسجل فشـل الكل، فيقـول[1]: لم ينجح اللبراليون - عندنـا - في إنهاء الاحتلال الأجنبي، إبان النصف الأول من القرن العشرين..

ولم ينجـح القوميـون في الجمع بـين الأيديولوجية والحكم الرشيد.

(١) صحيفة الحياة ١٤٢٨/٧/٢٠هـ.

ولم يفلح العلمانيون في إيجاد (مركب حضاري) يمزج بين التمدن والخصوصية الحضارية - الثقافية... ا.هـ.

إذا كان الأمـر كذلك فلمـاذا يُلصق الفشـل بالإسلاميين دون سواهم؟

ما هو النجاح الذي سجلته (الناصرية) بعد كل المغامرات؟

ماذا جلب - بعث العراق - سوى استقدام (المغول الجدد) واحتلالهم العراق وتخريب كل شيء فيه؟

نسينـا الأحـزاب التقدمية الشيوعية وعبـادة ستالين وهز الحبـال في شوارع بغـداد ومحكمة المهداوي، ورفـع شعار (ماكو مؤامـرة تصـير والحبال موجـودة) والشعار العظيـم جدًا: بعد شهر ماكـو مهر، القاضي نرميه بالنهـر.. ونسيت أخيرًا: تعليق الفتاة (قمر العمرية) على عمود الكهرباء في الموصل، عارية كما ولدت!

إنجازات أو إنجاسات عظيمة والخافي أعظم!

وصـدق الله إذ يقـول: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ (الأعراف: ٥٨).

لماذا أخفق العالم الإسلامي في إنجاب العلم الحديث

ما دمنا نسبح في حوض الإخفاق والفشل فقد وجدت كتابًا مترجمًا للعربية عنوانه: (فجر العلوم الحديثة) والمؤلف (توبي أ. هاف)[1]:

والسؤال: لقد كان العرب خلال القرون (٨-١٤) للميلاد الأكثر تقدمًا في العالم، وفي كل الميادين، لكنهم لم ينجبوا (العلم الحديث) فلماذا وكيف؟

مؤلف (فجر العلوم الحديثة) لديه تحليل يقول فيه: بعد طرح تساؤل: لماذا أخفق العالم العربي أن ينجب (العلم الحديث)؟ ولماذا انهار وتراجع (الفكر العلمي والعمل في الحضارة العربية الإسلامية، بعد القرن ١٣)؟ مع أن (العلم العربي) كان منذ القرون (٨-١٤) أكثر العلوم تقدمًا في العالم؟ وقد تجاوز بكثير ما كان لدى الغرب والصين، وفي كل ميدان للبحث، من الفلك والكيمياء والرياضيات والطب والبصريات... لقد كان للعلم العربي التفوق التقني والعلمي على مدار أكثر من (خمسة قرون)، فلماذا لم ينجب العلم الحديث؟

إن ما يطلق عليه العرب (علم الأوائل) -علوم الطبيعة- في مقابل العلوم العربية والإسلامية من تفسير وحديث وفقه وعلم

(١) فجر العلوم الحديثة، ترجمة أحمد صبحي، عالم المعرفة (٢١٩) ص ١/١٧٣.

كلام وشعـر ولغة، كل هـذا كان (بدافع) من حـب الاستطلاع، إضافـة لدوافـع دينيـة بحيث بلـغ أعلـى مستوى مـن (التقدم العلمي)، ولم يكـن ذلك خدمة للعلوم الطبيعيـة (علم الأوائل) لذاتها بقدر ما كان عائدًا إلى الحاجة لتطوير العلوم الإسلامية نفسهـا، فمن أجـل (قسمة المواريث) اعتـبر الحساب موضوعًا مهمًّـا للدراسـة، ومـن أجـل تأديـة الشعائر (الصـلاة) كانت الحاجـة لتحديد مواقيتهـا، ومن ثم استخـدام الهندسة ومثلها (حساب المثلثات) لغرض تحديد (القبلة).

فـإذا درسنا أسباب تدهـور الحضـارة الإسلامية سنجد أسبابًـا (عرقية) مـع سيطرة (سنيـة أرثودوكسيـة) دينية مع طغيـان سياسـي، إضافـة لوسائل متصلـة بالبواعـث النفسية والاقتصادية فضلًا عن إخفاق (فلاسفة الطبيعة العرب) في أن يطوروا المنهج التجريبي.

وانبثـق عن هذه العوامـل الأساسية أخـرى (فرعية) مثل الطغيـان السياسي الذي أفرز تعصبًا دينيًا تجاه علوم الطبيعة، ونشأ مـا يعرف بالعلوم (السرية) فصعـد التصوف والحركات السرية الباطنية خلال القرنين (١٢-١٣) للميلاد... ا.هـ.

استعراض يشارك ما ذكره د. محمد شابرا وغيره، فالأمة لا تتقـدم دون أخـذ جيـد بأسبـاب التقـدم، ولا تتدهـور إلا إذا

أخذت بأسباب التخلف والتدهور، وهنا تتشابك عوامل داخلية وخارجية، وتتجمع أخطاء ومشكلات، فإذا أهملت وأزمنت صعب العلاج وأفرزت نتائج ومصاعب جديدة، ولعل الحروب والكوارث الطبيعية والأمراض السارية متى تجمعت وترادفت فهي كفيلة بتهديم الحضارة والدفع بها نحو الفشل.

ومن الإسهامات التي وردت في السنة:

شيبتني هود وأخواتها

أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان صاحب رسول الله ﷺ ومن جيله، نظر يومًا لوجه رسول الله ﷺ وقال: أراك شبت يا رسول الله، قال ﷺ[1]: «**شيبتني هود وأخواتها**».

من يقرأ سورة (هود) يجدها تتحدث عن (ست) حضارات قديمة، كل حضارة ضربها مرض عضال وعاجلتها عقوبة مناسبة.

واحدة أصابتها علة التلاعب بالموازين، وأخرى العبث بالأمن وقطع الطريق وإخافة الناس، وثالثة أصيبت بالشذوذ الجنسي، وهكذا.. فكل أمة عاجلتها العقوبة المناسبة.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب، تحفة الأحوذي ٤/١٩٣، وأخرجه الحاكم في مستدركه – على شرط البخاري ٢/٣٤٣. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٧٢٠).

ومعلـوم أن هذه الأمم ضاربة في التاريخ، بينها وبين ظهور الإسـلام ألـوف السنـين، لكن سـنن الله لا تتغير، كمـا لا يمكن أحـد أن يتجاوزها أو يقفز فوقهـا، ومن هنا جاء تخوف صاحب الرسالة، فما أصاب تلك الأمم يمكن أن يصيب أمته.

ولعل قريب من هذا ما ورد في السنة أيضًا.

خمس خصال مهلكات

يـروي عبدالله بـن عمر رضي الله عنهما فيقـول[1]: أقبـل علينا رسول الله ﷺ بوجهـه وقال: يا معشر المهاجريـن خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهـن: ما ظهرت الفاحشة في قوم، حتى أعلنوا بها إلا ابتلـوا بالطواعين والأوجاع التـي لم تكن في أسلافهم، الذين مضـوا، ولا نقص قـوم المكيـال إلا ابتلوا بالسنين وشـدة المؤونة وجـور السلطان، ولا منع قـوم زكاة مالهم إلا منعـوا القطر، ولا خفـر قوم العهد، إلا سلط الله عليهم عـدوًا من غيرهم فأخذوا بعضـ ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم... ا.هـ.

هـذا نمـوذج من سـنن عامة تضـرب الأمم، فتزيـح الأمة عـن الصـدارة والقيادة والريادة لتصير في ذيـل القافلة، تتعثر مشيتها ويتفرق شعبها وتنشغل بعللها.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن باب العقوبات ٢/١٣٣. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٧٨).

يقـول تعـالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام: ٦٥).

دوائر الصراع ومستوياته

يحاول د. سامي الدلال تحديد (دوائر الصراع) بين العالم الإسلامي والغرب، فيسجل (١١) مستوىً ألخصها فيما يلي[١]:

١- **الصراع على المستوى العقدي:** فالعالم الإسلامي يضم شعوبًا وفئات تفرقت أزمان نشأتها، ولها أفكار بعضها لا يستقيم مع (عقيدة التنزيل)، وبعضها يعمل لاستخراج موروثه العقدي، ليجعـل معه أساسًا لمنطلقاته المذهبية، وهناك صراعات داخلية تستهلك الكثير من الطاقات.

أمـا علـى المستـوى (الخارجـي) فالصراع بـين المسلمين وغيرهم يشتد، والمسلمـون في موقع (الدفاع) وغيرهم في موقع (الهجـوم). وهذا الصـراع يظهر وكأنه صـراع مصالح يرتدي (رداء العولمة).

٢- **المستوى الديني:** يرصد الدلال المظهر الديني في العالم الإسلامي، فيذكر أن تفريطًا شديدًا جارٍ في أداء الأركان العملية

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع ص(٣٦) مرجع سابق.

للإسلام وخاصة (الصلاة)، وفي كثير من المرافق العامة فإنك لا تجد فرقًا بين كونك في العالم الإسلامي أو خارجه، وخاصة من جهة التبرج والسفور والملاهي الليلية، وأن الشريعة مبعدة تمامًا عن الاحتكام إليها، باستثناء الأحوال الشخصية... ا.هـ.

وأحسب أن النظرة (سوداء) والمجتمعات تختلف ثقافيًا وعمليًا عما كان عليه الحال قبل (عقد) وأكثر، فالالتزام اليوم أفضل ومظهر شوارع العاصمة في أمثال بغداد والقاهرة، وجل العواصم، هو أفضل، وحتى أداء الشعائر أفضل بكثير، وأذكر واقعة عشتها ومازلت أذكرها جيدًا، فقد وضعت جامعة بغداد (مفردة دراسية) تحت عنوان (الاقتصاد الإسلامي) فلم تجد من يدرسها، واليوم لا يخلو بلد عربي من (مصرف إسلامي) أو أكثر، والانتشار الثقافي أفضل، وأقسام الجامعات مملوءة.. لكن التوجه (الرسمي) معادٍ للإسلام؛ لأن الغرب غاضب على الإسلام وأهله (إذا غضبت عليك بنو تميم....).

٣- **المستوى السياسي**: يسجل الكاتب: إبعاد الإسلاميين عن الحكم، فلا يسمح لهم بتشكيل حزب، بل هم مضطهدون في الأعم الأغلب، والكثير منهم في السجون.

ويسجل الدلال: أن الجماعات العلمانية هي المتحكمة، ورأسمالها العمل لإبعاد الشريعة.

وهنا لابد من كلمة واضحة صريحة، فالحكم لا يريد أن تكون إلى جانبه جماعة قوية (سوى الشرطة)... وعندما كان الإسلاميون قلة والشارع قد أدار لهم ظهره، والغرب لا يحسب لهم حسابًا، كان الحاكم العربي (يعشقهم) ويتحالف معهم، فلما صاروا (قوة ضاربة) صاروا العدو رقم واحد، وصار الحاكم يقول للغرب - ليل نهار - إما نحن في السلطة أو سيتولاها الإسلاميون، هذه قضية.

وقضية ثانية (عشتها ولمستها) حين كان الاتحاد السوفيتي يصول ويجول قبل أن يصاب بـ (السكتة الدماغية) كان الحزب الشيوعي يساوي (الطاعون أو الإيدز)، ويكفي أن يتهم فرد بالشيوعية، حتى يضيع ويضيع مستقبله ومستقبل عائلته، مضت عقود وليس في البلاد العربية والإسلامية حزب شيوعي - باستثناء لبنان - المحكوم (بالمحاصصة الطائفية) فلما سقط الاتحاد السوفيتي، لا تمر بعاصمة إلا ترى (لافتة) كبيرة جميلة للحزب الشيوعي، ومن (تتمة ما رأيت) فقد (استنوق جمل الشيوعية) وانتهى إعلان الحرب على (الشيطان الأكبر) فصار أعز وأحلى (أمل) أن يقف الزعيم الشيوعي وعلى وجهه ابتسامة (أعرض من وجهه)؛ لأنه يقف إلى جانب سفير أمريكي ولو قد أحيل على التقاعد.

مرة ثانيــة وثالثة وعاشــرة الحاكم العربــي والإسلامي لا يريــد جيشًا قويًا؛ لأنه يغامــر بانقلاب، ولا يريد حزبًا قويًا؛ لأنه يجلــب (الصداع) ولا منظمة سياسيــة أو عمالية؛ لكونها تسبب المغص، وأحيانًا (الإسهــال وسلسل البول) عافانــا الله وإياكم وكافة الحكام من ذلك.

مــن تراثنا البعيد أذكر أن أبا جعفر المنصور - باني بغداد - يشكــو هاجسًا في (مجلس خاص)، حيث يعتقد أن الجيش له حركات غير مريحة، فيتطوع أحد أعمامه قائلًا: يا أمير المؤمنين أترك ذلك لي فأنا أعالجه وقد كان، وعاد العم ليقول للمنصور: اطمئن لقد أشعلتها (قيسية يمانية) فلا تخف.

المهــم الحاكم ضــد كل قــوي، وعاشق متيم لــكل ضعيف، لا يــرد يد لامــس، ولا يحسن قــول (لا)، فمرحبًــا وألف مرحب بالضعيف، واللهم أبعد عنا القوة وأهلها يا أرحم الراحمين!

مرة أخيرة (الحاكم قد لا يعادي الإسلام، ولا يريد به شرًا، ولكنه يخشى من قوة أهلــه ونفوذهم، فمتى استأسد العلمانيون وأحلافهــم، وتوشحــوا (بالحــزام الأمريكــي الأســود) ونادوا: هــل من منــازل؟ فسيبحث الحاكم عن الإسلاميــين أو سواهم، (ليوازن) في القوة، وليدفع بهم القوة الجديدة.

أخلاق عامة وخاصة
(مطلقة ونسبية)

بمناسبة ما يفعله الحاكم دفاعًا عن الكرسي - الذي يهتز كأنه جان - يـروي د. عبدالوهاب المسيري (مفارقة كبيرة) [1]: في المجتمـع الأمريكي فيقول: قد يتبنـى الأمريكي (نموذجين): واحدًا (للحياة الخاصة)، أما النموذج الثاني فهو للحياة العامة، لـذا قد تجد (أستاذًا للفلسفة) يدعو للإباحية في فلسفته، لكنه في حياته الخاصة يتمسك (بأهـداب الفضيلة)، والتي ليس لها أي أسـاس في رؤيتـه الفلسفية، وقد كنت أحـاور رجلًا من دعاة (الحرية الأخلاقية الكاملة والنسبية المعرفية) وهو إنسان فاضل حقًـا، فقال: أؤمن بالنسبية (المعرفيـة)، ومع ذلك لا يمكن القول إننـي (منحـل أخلاقيًّا). فأجبتـه - من غيظـي - إذن ستذهب للجنـة، وتذهب أفكارك للجحيم... لقد قوضت هذه النسبية كل شيء... ا.هـ.

٤- **المستوى الجهادي**: لا يجادل مطلع أن ذروة الإسلام هو الجهاد، فالإنسان قد يضحي بماله أو جاهه، لكن المجاهد يضحي بنفسـه.. وحتـى الأمس القريـب كان الإسلام يتهـم بالسكونية والقدرية والسلبية، ومن غير مقدمات صار المسؤول عن الثورات

(١) رحلتي الفكرية، الطبعة الأولى ص (١٥٣).

والحروب وكل تفجير يقع ينسب للإسلام في الدقائق الأولى من وقوعه، وإذا قام طبيب يهودي واستعمل (سلاح الدولة) وتوجه إلى المصلين في صلاة الفجر ثم حصدهم وهم ساجدون، يقال عنه: مختل! طبيب في الجيش وهو مختل، وإن فعل ذلك مسلم مختل أسند الفعل للإسلام؛ لذا لا يوجد إرهاب يهودي ولا مسيحي ولا سواهما، بل إرهاب إسلامي وكفى.

والمطلوب اليوم - محليًّا وعالميًّا - التبرؤ من الجهاد بكل أصنافه ودرجاته، لكن لا أحد يتذكر الإرهاب الصهيوني والحروب المتوالية وإشعال المنطقة متى أرادت إسرائيل، أو طلب منها بعد الحرب على غزة، تجمع أكبر المنافقين في العالم - وكلهم من الغرب - وهرولوا لزيارة إسرائيل وتأييدها وبيان حقها الشرعي في الدفاع، والأبطال كلهم بين رئيس جمهورية ورئيس للوزراء، أليس هذا النوع من النفاق هو المشجع الأكبر على شن الحروب؟

ومع ذلك فالسلاح قد يقع بأيدي صبي أو مجنون أو معتوه أو متخلف، فإن كان مسلمًا فالجريمة تنسب للإسلام، وقد تكون الجريمة موجهة للمسلمين وهم في انتظار للعمل أو في مطعم أو في محطة للسيارات، فالجنون فنون، ولا تخلو منه أمة اليوم.

لكنْ هناك مقاتلون مجاهدون وجدوا بلادهم تجتاح عسكريًا، فقاتلوا دون تكافؤ، وصمدوا دون مساند، ومازالوا

يسمعون قصائد هجاء على أمل أن يرضى عنهم الغرب، فيتعطف ويتلطف بمنحهم (وكالة) يتعيشون منها أو منصبًا يدر مالًا، والشكوى لله أولًا وأخيرًا.

٥- **المستوى العسكري**: يسجل الباحث أن الجيوش العربية أضاعت فلسطين عام ١٩٤٨م، وتوالت الهزائم وكان الأسوأ عام ١٩٦٧م، نحارب العدو أيامًا، أما الحرب بيننا فتمتد سنوات!

لقد صارت جيوشنا حامية للنظام أو عدوة له، فتلجأ للانقلاب، يقول اليابانيون - بحق - من يسرق مالًا: يعتقل ويسجن، ومن يسرق كرسيًا ينتخب (حاكمًا) مفارقة كبيرة، كان القدامى يقولون: سارق البيضة والدجاجة يعاقب، وسارق أموال الدولة يكرّم!

وألاحظ - بشكل عام - قلدنا الغرب في مشاريعه التنموية والثقافية والسياسية والصناعية والتجارية، لكن الغريب أن الغرب ينجح ونحن نفشل (فلماذا ينجحون ونفشل؟)[1].

٦- **المستوى العلمي والثقافي**: الاتجاه العام في العالم يشير إلى تقليص الأمية إلى الحد الأدنى، لكنها في العالم العربي تتصاعد لتسجل إحصاءات هيئة الأمم المتحدة أنها

(١) كتبت بحثًا بالعنوان أعلاه، وكلما قدمته لجهة لنشره رفضته، ربما لأنه يوجع من بأيديهم اليوم (الثقافة والإعلام) وقبلتهم (مغرب الشمس)!.

لامست نسبة ٦٥٪، وأن عدد المدارس والمعاهد والجامعات لم تعد تتناسب مع عدد السكان، وعدد المؤهلين للتعليم، كذلك مستويات البحث العلمي متواضعة جدًا قياسًا على إسرائيل..

الغريب في الأمر أننا - في العهد العباسي - أوشكنا على القضاء على الأمية وامتلأت بلادنا بالكتب حتى قال (ديورنت) - صاحب كتاب قصة الحضارة -: إن مكتبة الوزير الصاحب ابن عباد الشخصية، كانت تتفوق عددًا على كل ما في المكتبات العامة في أوروبا - في ذلك الوقت. وأن القاسم بن سلام كتب (غريب الحديث) فكافأه الوزير (الفتح بن خاقان) بأن رسم له راتبًا شهريًا سخيًا قدره عشرة آلاف درهم، وذلك مدى حياته وتصرف لذريته بعد مماته.

وحين زارنا الطاعون التتري سقطت بغداد على يد هولاكو الأول، ورميت الكتب في دجلة حتى تغير لون مائه.

عندما استولى برابرة الأندلس عليها أحرقوا كتبنا، وأغلقوا الحمامات والمدارس، واستطاع جماعة إنقاذ (١٢) ألف مجلد من محرقة واحدة.

لقد كنا لقرون رافعي راية العلم، حين كان الإنسان في باريس ينام هو وحيواناته على القش والتبن في مكان واحد.

كنت أمزح مع طلبتي فأقول: كان أهل اليمن المواطن الأول، والصاحي الأول - قبل الإسلام - فلما صحا العالم كله نام أبو يمن، وضربته الأمية والفقر والمرض. والشكوى لله تعالى.

وأختم بما كتبه د. حسن إبراهيم حسن في كتابه الجيد (تاريخ العرب قبل الإسلام) فقد جاء الحديث عن مملكة حمير[1] (١١٥) قبل الميلاد، قد قسمت إداريًا إلى (مخاليف)، لكل مخلاف رئيس، وقد اهتمت الدولة بالتجارة وتوسعت (عسكريًا)، فحاربت الفرس وأهل الحبشة، ومن ملوكهم الكبار (أسعد أبو كرب) حكم من (٣٨٥-٤٢١م) وكان محاربًا جيدًا، غزا بلاد فارس، ووصل إلى سمرقند، وحاصرت جيوشه (القسطنطينية)، حتى أخذ الجزية من أهلها، كما وصلت جيوشه (المدينة) شمالاً، وقد كسا (الكعبة).

فهل من يصدق هذا اليوم؟

٧- **المستوى الفكري:** لقد صارت بلادنا سوقًا لكل البضائع الفكرية الجيدة والفاسدة والمغشوشة والمتعفنة والمتفسخة، يقول د. الدلال: وقعت الشعوب المسلمة في خضم غيبوبة عن الإسلام، فصارت ضحية أفكار وافدة كالرأسمالية والشيوعية والوجودية والاشتراكية والديمقراطية والناصرية والعلمانية والحداثة

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ص (١٢٢).

وغيرها، وانساقت الجماهير وراء الشعارات والمبادئ الوافدة، فانضمت لمختلف الأحزاب، وأفرغت جهودها العقلية والنفسية والبدنية والمادية في دعم هذه المبادئ والذود عنها، حتى أريقت في سبيلها الدماء، وتقطعت بسببها الأرحام... ورغم أن الصحوة الإسلامية قد ألقت بظلالها على الشارع الإسلامي، لكن عمق المؤثر الوافد لا يزال كامنًا في كثير من العقول والنفوس، ولقد تخرجت أجيال في مدارس (الأفكار الوافدة) واستلمت مناصب عليا ومواقع التوجيه.

وسوف يكون الصراع القادم بين أبناء البلد الواحد، وسيكون الغرب هو الرديف والمناصر والمحرك، حتى في طرح الشبهات والعمل لإبعاد الإسلام وخصوصًا في ميادين التوجه والتوجيه والفاعلية.

٨- **المستوى الاقتصادي**: منح الله تعالى البلاد العربية وبعض البلدان الإسلامية ثروة طبيعية جيدة، لكن أثرها (التنموي) لم يكن مكافئًا لحجمها، فالفقر يهدد الكثير من المجتمعات، ويجعلها عاجزة عن التقدم والفاعلية، ومن عجب فإن شعوبًا لا تملك إلا القليل ومع ذلك تسجل التقدم والنهوض، وتساهم في التحضر إلا نحن، إن الفساد الحكومي كالجراد ما أن يحط أرضًا حتى يتركها بلاقع، في بلد مثل (نيجيريا) يستطيع حكام سرقة ملايين من عائدات النفط، ثم يضعها في

بنـوك الغـرب، وليعود بعد سنـوات ليعتلي أكـبر المناصب، بلاد عربية تنتج النفط لكن لا يدخل الميزانية منه قليل ولا كثير فأين تذهب ملايين الدولارات: (نذر عيادة له ولأولاده).

إن الفسـاد له طبيعة جهنم، حيث يقـال لها: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟

حزب عربي معروف رفع شعار: أنت تسأل والحزب يجيب، فصحح النـاس الشعار فصار: (أنت تدفع والحزب يبلع)، وظل يبلع حتى ابتلعته أمريكا!

من المفارقـات التي يصعب فهمها لأنهـا (نقيض المنطق) دول تنـادي الأغنيـاء: تعالـوا واستثمـروا أموالكـم عندنـا، ثم يكتشف الناس عجبًا، فهذه الدولة - وأخواتها - تستثمر أموالها في الغرب فلماذا وكيف؟

وقد تعود هذه الأمـوال لتستثمر في البلاد (الكحيانة) فما هذه الفلسفـة كأنها المقصـودة بتعريف الإنجليـز للدبلوماسية بأنهـا: (القـدرة علـى قـول لاشـيء) فهـل تفهمـون فلسفـة (الاستثمار)؟

٩- **المستوى الاجتماعي**: لقد جاء الإسلام بنظام اجتماعي واضـح وصريـح، ونجح هذا النظـام في الحفاظ علـى تماسك المجتمـع حتى اليوم برغـم أن الغرب المعجـب بنفسه وحضارته

يريد تغيير النظام الاجتماعي الإسلامي، فإنه صامد برغم كل المحاولات لزحزحة الإسلام وقيمه والحلول مكانه.

الغرب بفضل (نسبيته) وتحلله الخلقي وتفلت وتفتت الأسرة وهو يريد تصدير بضاعته لنا ولغيرنا، والويل لمن يقاوم ويعارض فإنه جامد متشنج معادٍ للتحضر وللقيم الغربية.

المستشار للأمن القومي الأمريكي - سابقًا - بريجنسكي[1] يرفع عقيرته ويتحدث بكل وضوح عن تخوف العالم من (انتشار الإباحية) وتفشيها وعلى الأخص في الدول الغنية، فهو يقول: هناك بعض الأسباب (لمخاوف جادة ومشروعة) من تزايد سيطرة (الإباحية وتفشيها) في المجتمعات الغنية و(الديمقراطية) وتحديدها لمحتوى وأهداف وجود الفرد نفسه، وتتضمن الفكرة مجتمعًا، تتراجع فيه وبشكل مطرد (المعايير الخلقية)، مع اهتمام زائد (بالإشباع المادي والحسي للذات) ثم يتحول الاهتمام إلى دافع رئيس للسلوك الاجتماعي، وتكون النتيجة تصاعد النسبية الأخلاقية وانهيار دور (المسؤولية المدنية) كمعيار لضبط (الحرية الفردية المنغلقة)..

إن نمط الحياة الغربية اليوم يمثل نموذجًا للتطلعات الاجتماعية، فيما تبقى من المجتمعات الشيوعية، والجماهير

(١) هكذا يصنع المستقبل، مركز الإمارات ص (١٤٢) طبعة أولى.

المحرومة - في العالم الثالث - لكن بعض التوجهات الشعبية في الثقافة الأمريكية الراهنة تثير (مخاوف خطيرة) تتعلق بمدى قابلية التطبيق لما يسمى بـ(حضارة ما بعد العصر الصناعي) على البعيد، والقدرة على توجيه رسالة ذات معنىً لعالم يتسلح (بالوعي السياسي)... هل يتوقع أن تأتي من مجتمع يركز بصورة متزايدة على (اللهو والاستهلاك) باعتبارهما جوهر النشاط الاجتماعي؟ إن اتباع هذه النزعة لا يمكن أن يستمر دون أن يقدم شكلًا للإلهام، ولا يضفي الشرعية على (إجماع دولي) حول الكيفية التي يجب أن ينظم بها العالم... ا.هـ.

عقيدة المستشار بريجنسكي

أقرأ لما يكتبه المستشار بريجنسكي وأجمع مؤلفاته، وأعجب بأفكاره، ولعل آخر ما طرحه (عقيدة بريجنسكي)[1]: فهو يؤمن بأن المجتمع (المنغمس في الشهوات) لا يستطيع أن يسن قانونًا (أخلاقيًا للعالم)، وكذلك فإن أي حضارة لا تستطيع تقديم قيادة أخلاقية فإنها سوف (تتلاشى)... ا.هـ.

باختصار شديد: فاقد الشيء لا يعطيه، وقال شاعر:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئًا جميلًا

فهل طرح هذه الأفكار يمكن أن تقنع بعض أبنائنا أم هم عاشقون، والعاشق لا يرى سوى جمال معشوقته وكفى!

(١) جنون الخطر الأخضر/ د. إبراهيم نافع ص (٢٠٨).

ذات يوم قال عاشق تركي: نريد كل ما لدى الغرب حتى الجراثيم التي في أمعائهم... إنه عاشق لكنه أعمى وأصم، نسأله تعالى العفو والعافية والبعد عن العشق (الكلبوني)...

موشح مطاع صفدي

للمفكر مطاع صفدي موشح - من نوع آخر من الموشحات الأندلسية - فهو يمكن أن يغنى وفي المقام (المدمي) إذ يقول: إن المثقفين العرب بأكثريتهم لا يعرفون (المشروع الثقافي الغربي)، وإن عرفوه فهم لا يقرؤونه، وإن قرأوا بعضه، لم يفهموا كله... ا.هـ[1].

مرة أخرى ما قول السادة العشاق؟

١٠- **المستوى الأخلاقي**: يعلن د. الدلال أسفه للانحدار الشديد في المستوى الأخلاقي، الذي يمر به العالم الإسلامي، ويعلل هذا الانحدار بسبب الاحتكاك بالغرب واقتباس العادات والأعراف السيئة منه، وترك ما هو خير، فقد تفشت الرشوة وإخلاف الوعد والتنابذ بالألقاب، والتهرب من سداد الدين، وأمثال ذلك من الموبقات، بحيث صارت خارج نطاق (إنكار المنكر) وكأنها من المعروف.. إن الفساد الأخلاقي هو شر ما يصيب المجتمعات، لكن هناك جهود جيدة لإيقاف هذا التدهور، والمؤشرات تتجه للإيجاب... ا.هـ.

(١) حصاد الأخبار العدد (١٧٤) ص (٨٣) لعام ١٩٩٩م.

هـذا التصـور يشترك فيـه كل أصحـاب الديانـات وعلى الأخص السماوية، فكل دين يبشر بقيـم خلقية ويحذر من قيم أخرى.. والإسلام جاء بجملة نظم منها:

(أ) العقيدة. (ب) العبادة. (جـ) الأخلاق. (د) التشريع.

والأديـان تشـترك بالأنظمـة الثلاثـة الأولى، وقـد تحوي تشريعـات مثـل اليهوديـة والإسـلام، وقـد تخلـو مـن التشريع كالمسيحية..

وللمفكر الجزائري مالك بن نبي يرحمه الله نظرية جيدة، فكل حضارة تمر بمراحل تكون في الأولى روحية قوية، وفي الثانية عقلية تفلسف المرحلة الأولى، وفي الثالثة (تهيج الغرائز) فتنحط الثقافة وتزول... المشكل في حضارة الغرب في نسبيتها وإهمالها الشديـد للأخلاق - كما قال بريجنسكي - وتطلعها لنشر قيمها في العالم، والمغلوب مغرم بتقليد الغالب حتى في فساده وانحلاله، وإذا كان مـن علامات الساعـة... أن يكون زعيم القوم أرذلهم، فكذلك حين يتطلع لقيادة العالم (منحل) ينظر للأخلاق كقيود مؤذيـة لا نفع فيها، والصراع هنا على أشده، والتدخل الخارجي كذلـك (والبركة) في وسائل المواصلات والاتصالات، حتى صار العالم قرية صغيرة، وكل ما يحصل ينشر (صورة وصوت):

وإذا كان رب البيت بالدف ناقرًا فشيمة أهل البيت كلهمو الرقص

مرجعية الأخلاق

كانت الأخلاق مرتبطة بالدين، فهو مرجعها الأساسي، فإذا فصلت عن الدين فما تكون مرجعيتها؟ هل تكون اللذة والمنفعة؟ وهل تتحول إلى نسبية فتصبح لا لون لها ولا طعم؟..

إن الأخلاق بفصلها عن الدين - خصوصًا بالنسبة للمسلمين - فستصير جاهلية بمعنى الكلمة، أو تصير مجرد مظاهر وشكل دون مضمون، أو يتفلت منها الأغنياء لتصبح من نصيب الفقراء، فينعدم الاحترام لها وتصبح كقيد يريد الكثير التخلص منه.

١١- **المستوى الإنتاجي** (الصناعي والزراعي): يشكو الدلال من تخلف المجتمعات المسلمة صناعيًّا وزراعيًّا، فالدول العربية تعتمد على ما تستورده من آلات وأجهزة كثيرة من الخارج، وهي تصدر الكثير من المواد الخام للغرب لتصنع هناك، وذلك بسبب انعدام الخطط التنموية، وهذا مما يساهم في انتشار البطالة وما يتبعها من انحدار في سلوك العاطلين وفاعلياتهم، وتدني مستوياتهم المعيشية والثقافية وغيرها... ا.هـ.

معلوم أن العالم عاش قرونًا يعتمد على الزراعة، حتى قامت النهضة الصناعية في الغرب، واعتمدت (الآلة) في الزراعة والصناعة فتضاعف الإنتاج، وهناك اليوم أمم ودول

تنتج بضائع لا تحتاجها ولا يمكن لمجتمعها أن يستوعبها وإذن لابد من أسواق خارجية، قد تصطدم مع منع الحكومات من دخول هذه البضائع.

وقد شهد العالم كيف هدد الغرب الصين إذا منعت استيراد الأفيون، وهددت اليابان بالاجتياح من قبل أمريكا إن لم تفتح حدودها للبضائع الأجنبية، من هنا توجه الغرب للتصدير، وهدد كل من يحول دون وصول بضائعه، وهنا برزت (ديانة جديدة) هي عبادة السوق.

حكمة عظيمة: بالحراب يمكن صناعة كل شيء

قال تاليران لنابليون[1]: بالحراب - يعني قوة الجيش - يمكن صنع كل شيء سيدي، إلا شيئًا واحدًا وهو (الجلوس على الحراب) والحكم ليس علامة على انتزاع السلطة، وإنما هو ممارسة هادئة لها... ا.هـ.

هذا التصور لقيمة القوة جعل دولة مثل الولايات المتحدة تشارك في حروب أو تساعد عليها بلغت (١٦٧)، وتنتشر جوشها في أكثر من (٥٠) دولة، كما سهل صعود أثمان البضائع الصناعية وهبوط قيمة بضائع العالم الثالث بشكل مستمر.

---

(١) تمرد الجماهير، خوسيه أورتيغا ص (١٤٧) طبعة ٢٠٠٧م.